باب الحديد .. على شط النيل !!

أفضل حى نتحدث عنه بعد حديثنا عن الفجالة هو باب الحديد . . ليس فقط بسبب القرب المكانى ، ولكن بسبب التاريخ المشترك والنشأة الواحدة . . ولايمكن أن نتحدث عن باب الحديد دون الحديث عن نهر النيل وتحركه غرباً . .

فقد كان النيل ـ عند الفتح العربى لمصر عام ٦٤٢م ـ يمر بهذه المنطقة، وأخذ ينتقل ببطء فى اتجاه الغرب .

وبسبب قرب النيل من هذه المنطقة خصوصاً فى عصر الدولة الفاطمية ، قرروا أن تصبح هذه المنطقة هى « ميناء القاهرة » . فإذا كان ميناء « مصر عتيقة » هو ميناء العواصم العربية الثلاث : الفسطاط والعسكر والقطائع ، ويربط هذه العواصم بالوجه القبلى . . فإن ميناء باب الحديد هو الذى يربط القاهرة الفاطمية بالوجه البحرى . وليس غريباً أن تصبح هذه المنطقة هى « منطقة جمارك العاصمة » ، ولهذا سميت المنطقه كلها باسم : المقس ، أو المكس أى المكوس وهى الجمارك . .

ويعتبر الخليفة الفاطمى العزيز بن المعز لدين الله أول من اهتم بعمارة هذه المنطقة . . فقد بنى داراً لصناعة السفن فى المقس فى الموقع الملاصق لجامع أولاد عنان ـ مسجد الفتح الآن ـ وبنى فيها المراكب التى لم ير مثلها قديماً عظمة ومتانة وحسناً . وكان يوم خروج الأسطول المصرى للفتح أو الدفاع من ميناء المقس يوماً مشهوداً ، حتى أن المقريزى كتب عن الاحتفالات التى كانت تصاحب خروج هذا الأسطول ، وكيف

كان الناس يتجمعون لمشاهدة هذا الأسطول العظيم فى هذا اليوم العظيم .* وكان الخلفاء يخرجون أيضاً « للفرجة » أى استعراض الأسطول ، فيمتلىء وجه النيل وساحله بالمتفرجين ، فيكون ذلك اليوم من المواسم المشهورة .

وغير بعيد عن هذا المكان ، أقام الخليفة العزيز أيضاً « منظرة اللؤلؤة » على الخليج المصرى بالقرب من باب القنطرة جهة جامع الشيخ عبد الوهاب الشعرانى . وكانت هذه « المنظرة » من أحسن منتزهاتهم ؛ إذ كانت تشرف على الخليج من الغرب ، وعلى البستان الكافورى من الشرق . وجعل لها سرداباً تحت الأرض متصلاً بالقصر الكبير، وكان يركب فى هذا السرداب من القصر الكبير إلى اللؤلؤة ، ويتجول فيها فى أيام امتلاء الخليج بمياه النيل هو وحريمه وخواصه ، وكانت تطل على بستان يعرف بالمقس ، وكان كبيراً جداً يمتد إلى النيل ، وفى بعض محله بركة الأزبكية وخط الموسكى .

وتخيلوا نفقاً أو سرداباً واسعاً تحت الأرض يمتد من المنطقة المواجهة الآن لبيت القاضى ليصل إلى بر الخليج المصرى ، فمن الذى أتم شق هذا السرداب بهذا الاتساع حتى يركب فيه الخليفة فى موكبه الفخم ومعه حريمه وخواصه وحرسه ! وهل مازال هذا السرداب موجوداً ، وما مصيره ؟ . نقول هذا لأننا أحضرنا معدات حفر متطورة للغاية مع تكنولوجيا عالية لحفر نفق للسيارات من الدراسة ؛ أى غير بعيد عن بداية سرداب الخليفة ليصل إلى الأوبرا ، أى يعبر تحت شارع بورسعيد ، الذى هو مسار الخليج المصرى نفسه !!

●● ويأتى الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله ابن الخليفة العزيز ليبنى مسجداً كبيراً فى هذا المكان ، هو جامع المكس أو المقس على شط النيل . . ويقول بعض المؤرخين أنه بنى مسجده هذا فى مكان دير قبطى قديم ، عندما تقلب الحاكم بأمر الله ضد أقباط مصر ، وهو الموقع نفسه الذى أقام عليه أولاد عنان مسجدهم القديم . وهو الموقع نفسه الذى « فك » فيه مسجد أولاد عنان ليتم بناء مسجد الفتح القائم الآن فى ميدان باب الحديد ـ رمسيس ـ واستغرقت إقامته أكثر من ١٤ عاماً . وقيل يومها إن مسجد أولاد عنان سوف يعاد تركيبه بحجارته نفسها فى موقع آخر . .

وواصل الخليفة الحاكم أعماله فى منطقة المقس ، فأمر بهدم منظرة اللؤلؤة وهدم سور القصر الكبير وبناه ثانياً ، وجدد البا ب المسمى باب البحر . وفى عهد ابنه الخليفة أبى الحسن على الملقب بالظاهر لإعزاز دين الله ، حفر البستان المقسى وأنشأ بركةماء تملأ من خليج فم الخور الذى كان عند قنطرة الدكة ، وأصله ترعة صغيرة . وكان يسمى أيضاً خليج الدكر ، وأوله عند قنطرة الدكة عندما كان نهر النيل يصل إلى المقس . ولم يزل يمتد مع انحسار النيل حتى صار فمه فى أيام السلطان الناصر قلاوون عند قنطرة سيدى « أبى العلاء » المجاورة لوابور المياه أى مسجد « أبو العلا » فى بولاق . .

وكانت فى هذا الموقع حول باب البحر وجامع أولاد عنان ـ قبل إنشائه ـ قريه تقع غربى الخليج المصرى هى قرية أم دنين ، وسرعان ما عرفت باسم المقس ؛ أى إن أم دنين هى أصل المقس ، وكانت من خطط القاهرة ، وتقع على يسار من يسلك شارع كلوت بك إلى السكة الحديد ، وتمتد إلى الشارع الواقع عليه جامع أولاد عنان أى شارع الجمهورية الآن ، الذى حمل اسم شارع نوبار باشا أول رئيس وزراء لمصر فى عهد إسماعيل ؛ لأن بيته كان يقع فى هذا الشارع ، وكان الخليج المصرى يفصل بينهما .

وكان فيما بين قرية أم دنين والشاطىء الغربى للخليج فضاء لابناء فيه ، ثم صار بعد بناء القاهرة ميداناً توضع فيه الغلال ، وسماه المقريزى فى خططه « ميدان القمح »، وهو الآن من منطقة باب الشعرية . وكان الواقف بهذا الفضاء يرى النيل عن يمينه من بعد إذا استقبل الغرب ، وعن يساره بستان المقس مكان بركة الأزبكية وما بحذائها من الجهة القبلية .

●● وكان لباب الحديد دور فى مقاومة الحملة الفرنسية على مصر . . فى ثورة القاهرة الأولى . . ثم فى ثورتها الثانية . . ففى الثورة الأولى فى أكتوبر ١٧٩٨م ، هدم الفرنسيون الكثير من المبانى ، من بينها جامع المقس الذى أقامه الحاكم بأمر الله ، وأقاموا مكانها « طابية » أطلقوا عليها اسم « كامان » ، وهو ضابط فرنسى كبير لقى مصرعه على سواحل الإسكندرية ناحية مريوط بالقرب من برج العرب ، على يد المقاومة التى قام بها العرب فى هذه المنطقة .

وهذه الطابية أقيمت بالقرب من قنطرة الليمون بالطريق الموصل إلى بولاق ويسميها الجبرتى : قلعة قنطرة الليمون . وكان الفرنسيون قد عرفوا أهمية هذا الموقع الإستراتيجى؛ لأنها جاءت ـ تقريباً ـ أمام قلعة المقس أو برج المقس ، الذى أقامه صلاح الدين فى نهاية سور القاهرة على النيل فى هذا الموقع . .

أما فى ثورة القاهرة الثانية فى شهرى مارس وأبريل ١٨٠٠م ، فقد كان مما خربه ودمره القوات الفرنسية حارة المقس من قبل سوق الخشب « ولاحظوا الخشب الذى كان ضروريًا لبناء السفن ، عندما كانت هنا دار صناعة السفن الفاطمية » إلى باب الحديد ، وجميع مابين ذلك من الحارات والدور وصارت كلها خرائب متهدمة محترقة تسكب عند مشاهدتها العبرات » كما قال الجبرتى ، انتقاماً من أهلها على مقاومتهم للقوات وللسلطات الفرنسية . .

ولكن الفرنسيين أقاموا بعض المنشآت غير الطابية ، فيقول الجبرتى فى يومياته يوم ٥ ديسمبر ١٧٩٨م « إنهم مهدوا التل المجاور لقنطرة الليمون . وجعلوا فى أعلاه طاحوناً تدور بالهواء عجيبة « !! » وتطحن الأرادب من البر « الغلال » وهى «بأربعة أحجار وأنشأها المسيوكونتى » ونسى الجبرتى الذى اندهش من هذه الطاحونة أن مصر عرفت طواحين الهواء قبل الحملة الفرنسية ، ويؤكد المؤرخون أنه كان بالإسكندرية طاحونة تدار بالهواء بثمانية أجنحة أى أكبر من طاحونة كوبرى الليمون . واعترف مسيو جيرار أحد مهندسى الحملة بأنه كان بالإسكندرية قبل الحملة الفرنسية سبع أو ثمانى طواحين هواء .

● باب الحديد .. وأسرة محمد على :

إلى أن جاء عصر محمد على ، وبدأ الميدان يأخذ اهتماماً خاصاً ، ويتحول إلى منطقة جديدة . . ففى ٢١ شوال ١٢٦٠ هـ « ١٨٤٤م » أصدر محمد على باشا أمراً إلى مدير ديوان المدارس بتحويل هذه المنطقة إلى متنزه عمومى . ويقول الأمر العالى : « إن محلات التلول التى صار إزالتها بجوار قنطرة الليمون وأرضية الإشارة قد صَمَمتُ على تنظيمها

متنزهاً عمومياً . فيلزم إحالة ذلك على مأمور تنظيم الأزبكية ، وما يلزم لها من الأشجار بسائر أنواعها تؤخذ من جنينة شبرا لأجل غرسها بها بمعرفة المأمور الموصى إليه . . . »

وفى عهد عباس باشا الأول ثانى حكام مصر بعد محمد على ، تم توقيع اتفاق مع الحكومة الإنجليزية لإنشاء خط للسكك الحديدية بين القاهرة والإسكندرية ، وخط آخر بين القاهرة والسويس . وتم إنجاز الجزء الأول من الخط الأول عام ١٨٥٤م ، قبل وفاة عباس الأول ، وإنجاز الخط الثانى عام ١٨٥٨م ، واستدعى ذلك ضرورة إنشاء محطة للسكك الحديدية فى منطقة باب الحديد عام ١٨٥٦م . وهى المحطة التى نسفت عقب الاحتلال الإنجليزى لمصر عام ١٨٨٢م بسبب انفجار مخزن للذخيرة ، وضعها جيش الاحتلال فى إحدى غرف المحطة . . وانتهى عصر المحطة الأولى لتقام مكانها المحطة الثانية الحالية على الطراز الإنجليزى المعروف : محطة باب الحديد . .

ثم كان قرار إنشاء خط للسكة الحديد فى كوبرى الليمون بين عامى ١٨٨٩م و١٨٩٠م ؛ ليربط العاصمة بضواحيها مثل المطرية والزيتون شمالى المدينة ، وبميدان المحطة أى وسط القاهرة . . وهو الخط الذى حل محله الخط الأول لمترو الأنفاق فى بداية التسعينيات !!

● باب الحديد .. على مدى القرن العشرين

وتعالوا نتابع تطور منطقة باب الحديد من خلال ٣ خرائط : الأولى فى بداية القرن العشرين . . والثانية فى منتصف القرن . . والثالثة عند نهايته . . أى تحكى الخرائط الثلاث حكاية المنطقة على مدى قرن كامل .

●● فى الخريطة الأولى المطبوعة فى بداية القرن العشرين ، نجد بين شارع الفجالة وشارع عباس الأول « الملكة نازلى ثم رمسيس حالياً » كان يقع قسم بوليس الأزبكية . وجنوبه شارع بين الحارات فشارع باب البحر ثم شارع كلوت بك فشارع نوبار باشا (الجمهوريه الآن) ، وامتداد شارع كامل عند فندق شبرد القديم ، فشارع عابدين من

ميدان الأزبكية ، ثم شارع تجران باشا وإبرو ، ثم شارع عماد الدين إلى أن نصل إلى شارع عباس الأول « رمسيس » .

وعلى حافة شارع نوبار كان يقع جامع أولاد عنان ، وفى هذه المنطقة كنا نجد حارة النصارى ، وفيها كاتدرائية مار مرقس حيث مقر البطريكخانة القديم للأقباط الأرثوذوكس بين شارعى كلوت بك والقبيلة ، وتصل الحارة إلى شارع نوبار . وجنوبها نجد منطقة وجه البركة ؛ حيث شارع القبيلة شمالاً ، ثم شارع وجه البركة وامتداده شارع قنطرة الدكة حيث كنيسة الروم الكاثوليك ، فشارع المهدى إلى أن نصل إلى حى الأزبكية .

وكان للإنجليز وجود حيوى فى هذه المنطقة بحكم موقعها الإستراتيجى ؛ حيث كانت هناك قشلاقات بوليس الجيش البريطانى فى ميدان المحطة بين شارع عباس وشارع سيدى المدبولى ، وسجن الأجانب ومكانه الآن مستشفى الهلال الأحمر . ومن الناحية الأخرى للميدان نجد بداية شارع السبتية وكوبرى شبرا المعدنى ، المؤدى إلى شارع شبرا إلى أن نصل إلى حى القللى . .

●● وفى خريطة منتصف القرن العشرين ، أى بعد الأولى بحوالى ٥٠ عاماً نجد الأماكن نفسها ، وإن تغيرت المسميات . وكان ذلك فى بداية ثورة يوليو ١٩٥٢ . نجد شارع عباس الأول الذى تحول إلى شارع الملكة نازلى ثم شارع الملكة فقط ، ثم تحول اسمه إلى شارع النهضة ، بعد أن تم نقل تمثال نهضة مصر الذى أبدعه مثال مصر الكبير محمود مختار من موقعه فى ميدان باب الحديد إلى أمام جامعة القاهرة ، ليحل محله فى باب الحديد تمثال رمسيس الثانى .

ونجد مستشفى الهلال الأحمر مكان سجن الأجانب، الذى كان سجناً للمعتقلين السياسيين قبل الثورة ، ونجد مبنى جمعية المهندسين المصرية ، ولم يكن مبنى نقابة المهندسين قد أقيم بعد . . ونجد شارع توفيق يحمل اسم شارع عرابى ، والجمهورية محل نوبار وعابدين . . ونجيب الريحانى محل قنطرة الدكة . واختفى اسم حارة

النصارى وشارع الجلاء محل شارع الترعة البولاقية . وفى الناحية الأخرى من باب الحديد نجد منطقة الشماشرجى وأرض الطويل وقصورة الشوام والقللى . .

●● وبعد هذه الخريطة بحوالى ٥٠ عاماً ؛ أى فى نهاية القرن العشرين ، نجد أن شارع النهضة أصبح اسمه شارع رمسيس من بدايته عند الشاطىء الشرقى لنهر النيل إلى باب الحديد ؛ ليحمل الميدان اسم ميدان رمسيس ، ثم يمتد إلى العباسية ويعبرها إلى طريق الأوتوستراد عند نادى السكة الحديد فى مدينة نصر . . ويختفى جامع أولاد عنان من ميدان باب الحديد ليقام مكانه جامع الفتح . .أى كان فى الموقع نفسه : الدير القبطى ليقيم مكانه صلاح الدين الأيوبى برج أو قلعة المكس ، ثم يقيم الحاكم بأمر الله جامع المقس مكانه لتهدمه الحملة الفرنسية ، ثم يبنى محله أولاد عنان مسجدهم الشهير . . ليصبح فى نهاية القرن العشرين مسجد الفتح وصاحب أعلى مآذن القاهرة كلها . .

ويختفى مبنى محطة كوبرى الليمون لتقام مكانها محطة مبارك لمترو الأنفاق . . وعما قليل سيختفى اسم كوبرى الليمون . . الذى كانت بدايته سوقاً لليمون ، ثم قنطرة الليمون ثم قلعة أو طابية « كامان » ثم كوبرى الليمون . . ثم محطة كوبرى الليمون إلى أن تصبح محطة مبارك لمترو الأنفاق !!

ثم نجد شارع الجمهورية من باب الحديد إلى قصر عابدين ، بعد أن كان مقسماً بين نوبار وكامل باشا وعابدين . ونجد عماد الدين قد تم تقسيمه إلى قسمين : الأول من ناحية باب الحديد أصبح اسمه عماد الدين ، وباقيه من شارع ٢٦ يوليو أصبح اسمه شارع محمد فريد ، إلى أن يصل إلى الناصرية وعابدين . .

ولا تستطيع قوة أن تغير اسم شارع باب البحر ، فهو الأثر الوحيد الباقى على أن بحر النيل كان يصل إلى هنا . . فى ميدان باب الحديد . . ولن تغير قوة اسم الفجالة ، حتى ولو بعد أن غيروه إلى اسم شارع كامل صدقى . . لأن الفجالة اسم يعبر عن الحى كله . . وهو الاسم الشائع على لسان الناس كلهم حتى الآن .

●● وقد سجل المخرج السينمائى المجدد يوسف شاهين اسم « باب الحديد » فى واحد من أهم أفلامه ، هو فيلم « باب الحديد » من بطولته وبطولة هند رستم ؛ حيث سجل فيه الحياة الحية لمن يعمل ويعيش فى المنطقة وحول قطارات السكة الحديد وورش « أبو غاطس » . كما دار أكثر من فيلم حول هذه المنطقة ، وفيلم آخر تقاسم بطولته أحمد مظهر وشادية وعمر الشريف .

***

رمسيس الثانى أقمناه محل تمثال نهضة مصر فى موقع كان يجرى فيه نهر النيل قبل أن يغير النهر مجراه ويتجه غرباً .

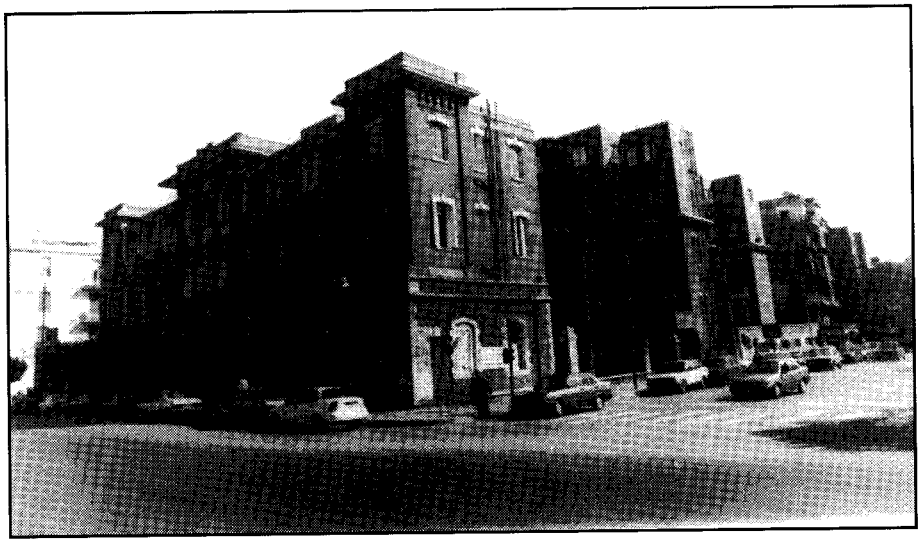

المستشفى القبطى على حافة حى الفجالة عند تقاطعه مع رمسيس أقيم فى ثلاثينيات القرن العشرين .

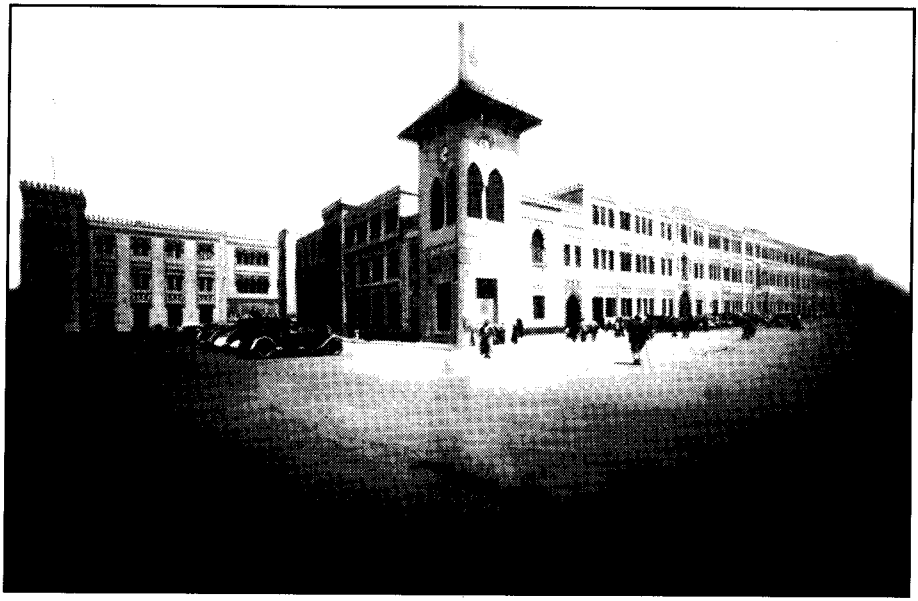

محطة مصر عام ١٩٤٠ يعلوها التاج الملكى .

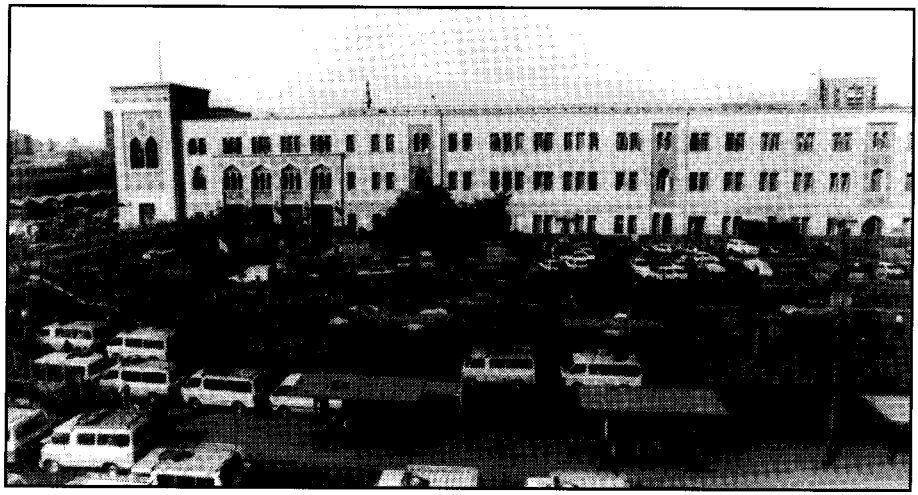

محطة مصر . . رمز القاهرة . . ودرة ميدان باب الحديد .

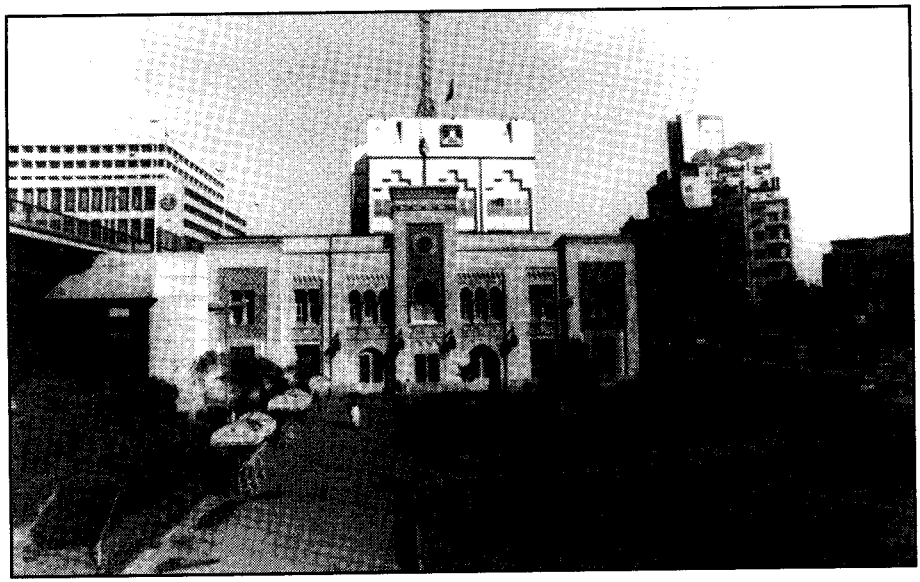

محطة كوبرى الليمون بميدان باب الحديد كانت هنا طابية أو قلعة أقامتها قوات بونابرت وعلى اليمين عربات مترو مصر الجديدة .

سبيل ابن محمد على باشا المعروف باسم سبيل أولاد عنان على حافة شارع الجمهورية وبجوار شارعى باب البحر وعماد الدين .

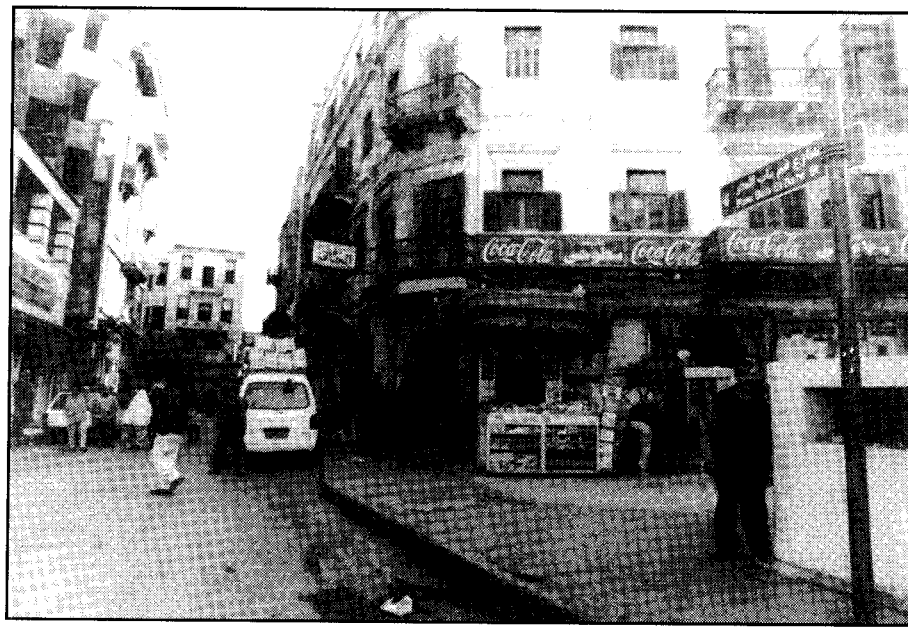

شارع فم باب البحر الذى يوصل بين ميدان باب الشعرية إلى أن يصل إلى ميدان باب الحديد عند حافة أو مدخل شارع أو حى الفجالة .

وفى صدر الصورة نجد لوكاندة النيل تذكر الناس أن نهر النيل كان يصل إلى هنا . . إلى فم باب البحر والبحر هنا هو بحر . . النيل .

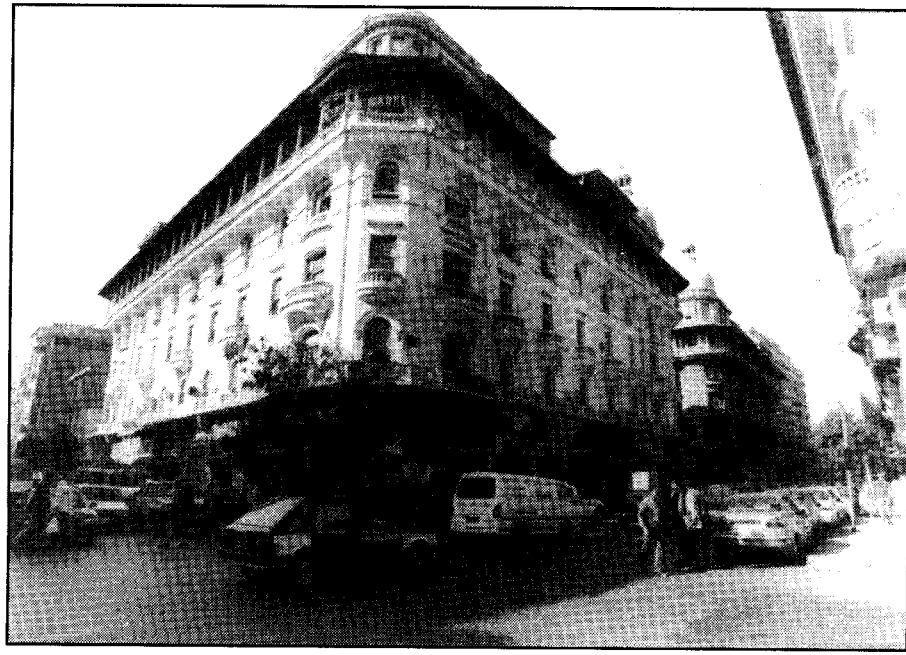

العمارات الضخمة الفخمة فى شارع عماد الدين ، غير بعيدة عن موقع قنطرة الدكة عند باب الحديد .

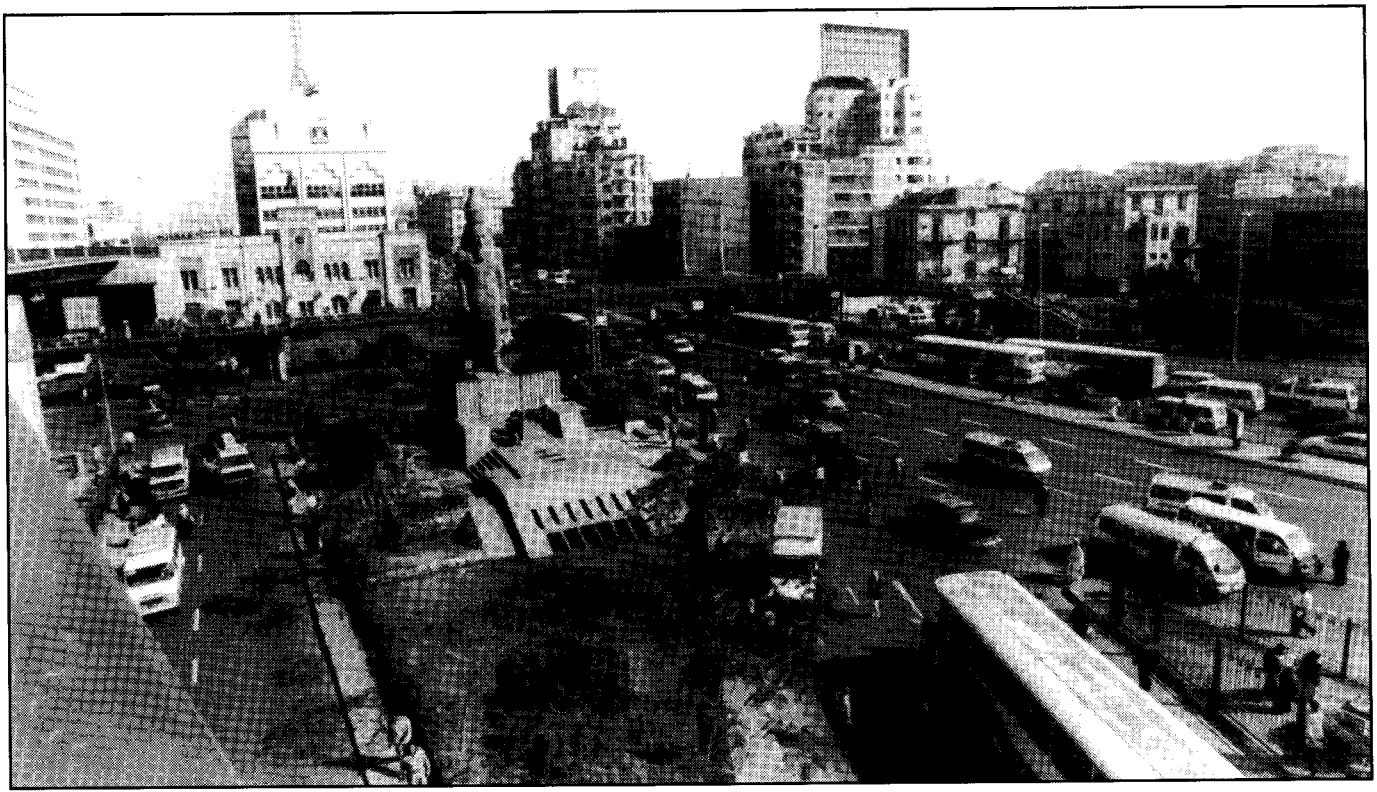

ميدان باب الحديد يتوسطه تمثال رمسيس الثانى وإلى اليمين كنيسة الادفنتس وبينهما شارع رمسيس ، الملكة نازلى سابقاً .